بسم الله الرحمن الرحيم

البيان النبوي
في خطاب الصحابة بالقرآن الكريم

بحث مقدم لملتقى "التربية بالقرآن الكريم"

الذي تنظمه الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه

في جامعة أم القرى بمكة المكرمة

إعداد

د. يوسف بن عبدالله العليوي

صفر ١٤٣٦هـ

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله. إن أحسن الحديث كتاب الله ﷻ، وخير الهدي هدي رسول الله ﷺ. أما بعد،

فإن من منن الله على هذه الأمة أن أنزل القرآن العظيم ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، وبعث فيهم رسوله الكريم محمدًا عليه أتم الصلاة والتسليم ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾؛ فما كان منه ﷺ إلا أن حمل أصحابه على هدي القرآن، فزكّى الله به قلوبهم، وأصلح به أقوالهم وأعمالهم، وهداهم إلى الصراط المستقيم، فكانت تزكيته لهم خير تزكية وتربيته لهم خير تربية.

وإن العمق التربوي الذي أحدثه القرآن الكريم في الصحابة ﷺ وغرسه فيهم رسول الله ﷺ كان أعظم العوامل التي جعلتهم جيلاً قرآنيًا فريدًا، لم تنجب البشرية جيلاً مثله ولن تنجب.

إن البشر مهما كانوا ومهما بلغ كلامهم من حسن البيان فإنه لا يكون له من التأثير في النفوس والسلوك مثلما هو لآيات القرآن العظيم، وهذا سر من أسرار إعجازه؛ فإن صنيعه بالقلوب عَجَب عُجَاب، وقد عُدّ وجهًا من وجوه إعجازه كما قال الخطابي (٣٨٨هـ): ((قلت في إعجاز القرآن وجهًا آخر، ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في حال آخر ما يخلص منه إليه. تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها... ومصداق ما وصفناه في أمر القرآن في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وفي قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ

يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، في آي ذوات عدد منه، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد، ومن عظيم آياته ودلائل معجزاته))(١).

ولذا كان من أساليب النبي ﷺ في تربية أصحابه وتزكية نفوسهم وتعليمهم أن يتلو عليهم القرآن ويخاطبهم به، حسب المقامات والأغراض التي تقتضي من البيان النبوي أن يتخير الآيات المناسبة أن يخاطبهم بها، ويربيهم على هديها.

وخطاب النبي ﷺ لأصحابه بالقرآن الكريم ظاهر في بيانه في أحاديث كثيرة، لكنني لم أره مطروقًا من قبل في الدراسات البلاغية أو التربوية.

وأردت في هذا البحث أن أكشف عن هذا النوع من البيان النبوي في الخطاب وأغراضه وأساليبه البليغة.

وجاء في ثلاثة مباحث، تناولت في المبحث الأول: أنواع الخطاب النبوي بالقرآن، وفي المبحث الثاني: بنية الخطاب النبوي بالقرآن، وفي المبحث الثالث: أغراض الخطاب النبوي بالقرآن.

وكانت عينة البحث من ثلاثة وعشرين حديثًا مما ورد في صحيحي البخاري ومسلم، واكتفيت في العزو إليهما برقم الحديث فيهما، وإذا استدعى الأمر تكرار الحديث لم أخرجه مرة أخرى بناء على ذكره أولاً.

ولعل هذا البحث يسهم في العودة إلى المنبع الأول -القرآن الكريم- في التربية والإصلاح؛ فإنه لا صلاح إلا بالقرآن، ولا تربية إلا على منهاجه، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨]. وإذا كان خير القرون قد كفاهم الوحي، فهو لغيرهم كفاية، وقد قال سبحانه:

---

(١) بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٧٠-٧١.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، ورحم الله ابن باديس (١٣٥٩هـ) الذي قال: ((القرآن الذي كَوَّن رجال السلف لا يكثر عليه أن يُكَوِّن رجالاً في الخلف، لو أُحسن فهمه وتدبره، وحملت الأنفس على منهاجه))[٢].

إن الخطاب الدعوي والتربوي خطاب قرآني، يتلو القرآن، ويستشهد به، ويقتبس منه، ((ولقد تقوم الآية الواحدة المستشهد بها في بلوغ الغرض وتوفية المقاصد ما لا تقوم به الكتب المطولة والأدلة القاطعة))[٣]. وقد استحب بعض العلماء تلاوة آية على الأقل في خطبة الجمعة، وأوجبها بعضهم[٤]، وعِيب على الخطبة خلوها من آي القرآن الكريم، وذكر الجاحظ (٢٥٥هـ) أن خطباء السلف وأهل البيان يسمون الخطبة التي لم توشح بالقرآن: الشوهاء، وأورد عن عمران بن حِطّان الخارجي أنه قال: خطبت عند زياد بن أبيه خطبة ظننت أني لم أقصر فيها عن غاية، ولم أدع لطاعن علة، فمررت ببعض المجالس، فسمعت شيخًا يقول: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن[٥]، وقال اختيار الدين الحسيني (٩٢٨هـ): ((من لم يُدخِل في سواد إنشائه وإنشاده المنظوم والمنثور من الاقتباسات الفرقانية نورًا فماله من نور))[٦].

نسأل الله ﷻ أن يهدينا بالقرآن العظيم وبهدي سيد المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

---

(٢) آثار ابن باديس: ١٤٢/٢. وينظر: التجربة الدعوية للشيخ عبدالحميد بن باديس: ١٨١-١٨٢.

(٣) حسن التوسل: ٧٦.

(٤) ينظر: المجموع: ٣٨٩/٤، والمغني: ١٧٤/٣-١٧٦.

(٥) البيان والتبيين، للجاحظ: ٦/٢.

(٦) أساس الاقتباس، للحسيني: ٣.

المبحث الأول: أنواع الخطاب بالقرآن

جاء خطاب النبي ﷺ لأصحابه ﷺ بالقرآن على أنواع ثلاثة:

الأول: الخطاب بنص القرآن.

وهذا النوع من الخطاب جاءت عليه كثير من الأحاديث، وهو على نمطين:

أ- أن يكون الخطاب كله قائمًا على نص القرآن، فيكتفي النبي ﷺ به عن أي كلام آخر معه.

ومن ذلك حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها، فأنا هذا فاقض فيّ ما شئت... قال: فلم يرد النبي ﷺ شيئًا، فقام الرجل فانطلق، فأتبعه النبي ﷺ رجلاً دعاه، وتلا عليه هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود:١١٤]. فقال رجل من القوم: يا نبي الله هذا له خاصة ؟ قال: «بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً»(٧).

ومن ذلك حديث معقل بن يسار رضي الله عنه حينما عضل أخته، فأنزل الله جل جلاله: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ إلى آخر الآية [البقرة:٢٣٢]، فدعاه رسول الله ﷺ فقرأ عليه(٨).

ب- أن يكون القرآن جزءًا من الخطاب.

وهو الغالب في الخطاب بالقرآن، ومن ذلك خطبته ﷺ حينما رأى الفاقة في قوم من مضر، فحمد الله وأثنى عليه، وقرأ قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ الآية [النساء:١]، وقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر:١٨]، ثم حثّ على التصدق(٩).

ومنه حديث عائشة رضي الله عنها في سؤال أزواج النبي ﷺ النفقة، فاعتزلهن شهرًا، ثم أنزل الله عز وجل آيتي الأحزاب لتخيير أزواج النبي ﷺ بين بقائهن مع رسول الله ﷺ أو تسريحهن، قالت عائشة: لما أُمر رسول الله

---

(٧) أخرجه البخاري: (٥٢٦)، ومسلم: (٢٧٦٣) وهذا لفظه.

(٨) أخرجه البخاري: (٥٣٣١) .

(٩) أخرجه مسلم: (١٠١٧).

ﷺ بتخيير أزواجه بدأ بِي، فقال: «إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا فَلا عَلَيْكِ أَنْ لا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ»... ثم قال: «إِنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ قَالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلى: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٨-٢٩]». فقلت: ففي أيِّ هذا أستأمر أبَوَيّ ! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. قالت: ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت(١٠).

الثاني: الاقتباس من القرآن.

الاقتباس فن بلاغي معدود في أساليب علم البديع، ويعرف بأنه: تضمين الكلام شيئًا من لفظ القرآن أو الحديث، لا على أنه منه(١١). وقول البلاغيين: ((لا على أنه منه)) يفيد أن المتكلم قد اقتبس لفظ القرآن أو الحديث ثم أدمجه في كلامه، ليعد بعد ذلك من كلام المتكلم، لا من كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ، ولهذا يصح أن يغير المتكلم في الكلام المقتبَس بزيادة أو نقصان تغييرًا يسيرًا لا يخرجه عن الاقتباس، وأن ينقله عن معناه الأصلي إلى معنى آخر(١٢).

والاقتباس من القرآن والحديث يؤكد الكلام، ويكسبه رونقًا عظيمًا، ويؤثر في النفوس تأثيرًا بليغًا، كيف لا، وهما قد بلغا في فصاحة الألفاظ وشريف المعاني وحسن التأثير شأنًا عظيمًا.

والاقتباس يقع بالجملة أو أكثر من ألفاظ القرآن أو الحديث. وذكر بعض العلماء أن الاقتباس يكون بالكلمة المفردة(١٣). ولو كان ذلك على إطلاقه لصار كثير من كلام الناس اقتباسًا(١٤)، ولكن يصح أن يقع بما دون الجملة فيما يتميز أنه من لفظ القرآن الكريم أو الحديث الشريف، ولا تذهب النفس مع ذكره إلا إلى موضعه منهما، ولا أظن أولئك العلماء يقصدون إلا هذا، والله أعلم.

واقتباس النبي ﷺ من القرآن ظاهر في كلامه، ويشير إليه شراح الحديث أحيانًا، قال الثعالبي (٤٢٩هـ): ((هذا النبي ﷺ -هو أفصح العرب لَهجة، وأعذبهم عَذْبة، وأحسنهم إفصاحًا وبيانًا، وأرجحهم

---

(١٠) أخرجه البخاري: (٤٥٠٨)، ومسلم: (١٤٧٥).

(١١) ينظر: الإيضاح وشروح التلخيص: ٤/٥٠٩-٥١٠.

(١٢) ينظر: المرجع السابق، والاقتباس، للعسكر: ٢٨-٣٣.

(١٣) ينظر: الاقتباس، للعسكر: ٢٧.

(١٤) ينظر: المرجع السابق.

في الحكمة البالغة ميزانًا- قد اقتبس من معاني القرآن وألفاظه في الكثير من كلامه، والجمّ الغفير من مقاله))[15].

ومن الاقتباس من القرآن قول النبي ﷺ في غزوة خيبر: «اللهُ أَكْبَرُ. خَرِبَتْ خَيْبَرُ. إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ»[16]، وفي هذا الحديث اقتباس من قول الله ﷻ في سورة الصافات وهي مكية: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧].

وفي مقامات التربية جاء من الاقتباسات ما في حديث أبي هريرة ﵁ قال: قيل للنبي ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: «أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ» الحديث[17]، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((هو موافق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]))[18].

ومن الاقتباس ما جاء في حديث عبد الله بن مسعود ﵁ قال: كنا مع النبي ﷺ شبابًا لا نجد شيئًا، فقال لنا رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَن اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ» الحديث[19]، وقوله: «أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ» موافق لقوله ﷻ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠].

ومنه حديث أبي هريرة في تفسير اليهود التوراة للمسلمين: «لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية [البقرة:١٣٦]»[20].

ومنه عن عائشة ﵂ قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «لاَ يَنْفَعُهُ؛ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»[21].

ومن الاقتباس الظاهر ما ورد في قصة موسى والخضر[22]، ويكاد تكون كلها اقتباسًا.

---

(١٥) الاقتباس من القرآن الكريم، للثعالبي: ٢٤.

(١٦) أخرجه البخاري: (٣٧١)، ومسلم: (١٣٦٥).

(١٧) أخرجه البخاري: (٣٣٥٣، ٤٦٨٩)، ومسلم: (٢٣٧٨).

(١٨) فتح الباري، لابن حجر: ٤١٤/٦.

(١٩) أخرجه البخاري: (١٩٠٥ و٥٠٦٦) ، ومسلم: (١٤٠٠). والباءة: النكاح والتزوج، والمقصود القدرة على مؤنة النكاح، وينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ١٦٠/١، وشرح صحيح مسلم: ١٧٣/٩.

(٢٠) أخرجه البخاري: (٤٤٨٥، ٧٣٦٢، ٧٥٤٢).

(٢١) أخرجه مسلم: (٢١٤).

الثالث: الإشارة إلى القرآن.

وفي هذا النوع لا يذكر النبي ﷺ لفظ القرآن، ولكن يشير إليه، ويُذكّر به.

ومن ذلك قوله ﷺ لعائشة وحفصة حينما راجعتاه في إمامة أبي بكر ﷺ للصلاة أثناء مرضه الذي توفي فيه: «مَهْ. إنَّكُنَّ لانْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ. مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ»[23].

وهو يشير إلى قصة امرأة العزيز مع النسوة في قول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٠-٣٢].

ومن ذلك حديث عثمان بن عفّان ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ عند انصرافنا من صلاتنا هذه (قال مسعر: أراها العصر) فقال: «مَا أَدْرِي، أُحَدِّثُكُمْ بِشَيْءٍ أَوْ أَسْكُتُ؟» فقلنا: يا رسول الله، إن كان خيرًا فحدثنا، وإن كان غير ذلك فالله ورسوله أعلم. قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَطَهَّرُ فَيُتِمُّ الطُّهُورَ الَّذِى كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ، فَيُصَلِّي هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَاتٍ لِمَا بَيْنَهَا»[24].

وهو يشير في قوله: «الطُّهُورَ الَّذِى كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ» إلى قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ الآية [المائدة:٦].

ومن ذلك حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى، فمر على النساء، فقال: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ؛ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ» فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ» قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا، يا رسول الله؟ قال: «أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ

---

(٢٢) أخرجه البخاري: (١٢٢، ٣٤٠١، ٤٧٢٥، ٤٧٢٧)، ومسلم: (٢٣٨٠).

(٢٣) أخرجه البخاري: (٦٦٤، ٦٧٩، ٧١٢)، ومسلم: (٤١٨).

(٢٤) أخرجه مسلم: (٢٣١).

الرَّجُلِ؟» قلن" بلى. قال: «فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا. أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟» قلن: بلى. قال: «فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا»(٢٥).

يشير بقوله: «أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟» إلى قوله تعالى: ﴿**وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ**﴾ [البقرة:٢٨٢].

ومن ذلك أيضًا قوله ﷺ لابن عمر حينما طلق امرأته وهي حائض: «فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ»(٢٦).

يشير إلى قول الله ﷻ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ**﴾ [الطلاق:١]، على أنه ورد في رواية عن ابن عمر أن النبي ﷺ قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ فِي قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ﴾(٢٧).

(٢٥) أخرجه البخاري: (٣٠٤) ، ومسلم: (٨٠).

(٢٦) أخرجه البخاري: (٤٩٠٨، ٥٢٥٢)، ومسلم: (١٤٧١).

(٢٧) قال النووي في شرح صحيح مسلم: ٦٩/١٠: ((هذه قراءة ابن عباس وابن عمر، وهي شاذة، لا تثبت قرآنًا بالإجماع، ولا يكون لها حكم خبر الواحد عندنا وعند محققي الأصوليين، والله أعلم)).

المبحث الثاني: بنية الخطاب بالقرآن

أولاً: أجناس الخطاب:

ورد الخطاب بالقرآن في إطار عدد من أجناس القول وأساليب التعبير، ومنها:

١-الخطبة:

ووردت في قصة القوم المضريين الذين جاؤوا النبي ﷺ فرأى الفاقة فيهم، فصلى الظهر، ثم صعد المنبر، فخطب، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قرأ فيها الآيتين من سورة النساء والحشر، ثم حثّ على التصدق.

ومن ذلك خطبة النبي ﷺ في النساء يوم العيد، فوعظهن وذكرهن وأمرهن بالصدقة، وقرأ عليهن قبل ذلك آية بيعة النساء في سورة الممتحنة[٢٨].

وقد كان النبي ﷺ يَذْكر في خطبه آيات من القرآن الكريم يُذَكّر بها الناس، كما في صحيح مسلم عن جابر بن سمرة ﷺ قال: كانت للنبي ﷺ خطبتان، يجلس بينهما، يقرأ القرآن، ويذكر الناس[٢٩]. وفي صحيح مسلم أنه ﷺ كان يخطب بسورة "ق"[٣٠]، وقال ابن القيم (٧٥١ هـ): ((مما حُفِظ من خطبه ﷺ أنه كان يكثر أن يخطب بالقرآن وسورة "ق"))[٣١].

٢-الحوار:

قد يأتي الخطاب بالقرآن في إطار حوار يجري بين النبي ﷺ وأحد الصحابة ﷺ، وربما كان النبي ﷺ هو الذي يبدأ الحوار، وقد يكون خطاب النبي استجابة لمن بدأ الحوار.

ومن ذلك مثلاً حديث أبي سعيد بن المعلى ﷺ حينما لم يستجب لنداء النبي ﷺ له وكان يصلي، فبدأ معه النبي ﷺ الحوار قائلاً: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟». فقال: كنت أصلي. فقال: «أَلَمْ يَقُلْ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]؟!» الحديث[٣٢].

---

(٢٨) أخرجه البخاري: (٩٧٩، ٤٨٩٥)، ومسلم: (٨٨٤).

(٢٩) أخرجه مسلم: (٨٦٢).

(٣٠) أخرجه مسلم: (٨٧١، ٨٧٢، ٨٧٣).

(٣١) زاد المعاد، لابن القيم: ٤٢٤/١.

(٣٢) أخرجه البخاري: (٤٤٧٤، ٤٦٤٧، ٤٧٠٣).

والنبي ﷺ لم يفجأ الصحابي بالإنكار عليه، بل حاوره ليعرف حقيقة ما وقع فيه، فابتدأ أولاً بالسؤال عن الدافع إلى تخلفه عن الاستجابة للدعوة، فلما تيقن أنه وقع فيما ينكر، ارتقى إلى معاتبته والإنكار عليه بصيغة الاستفهام.

ومن الحوار ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: قيل للنبي ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: «أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابْنُ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ خَلِيلِ اللهِ». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟» قالوا: نعم. قال: «فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا»(٣٣).

ولا أظن النبي ﷺ إلا أنه كان يدرك مقصد سؤالهم لكنه أراد أن يبين لهم ما هو أولى بالجواب على طريقة أسلوب الحكيم(٣٤)، فهم يسألون عن أصول العرب التي ينسبون إليها ويتفاخرون بها، فأجاب النبي ﷺ أولاً بهذا الجواب: «أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ» مقتبسًا من الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:٢٤]؛ وفيه تعريض بأن الشرف الذي يسعى إليه ويسأل عنه إنما يكون من جهة العمل الصالح(٣٥).

٣-الوصية:

ربما ضمّن النبي ﷺ وصاياه شيئًا من القرآن الكريم، مما يناسب المقام، ومن ذلك مثلاً حديث جرير بن عبد الله ﷺ قال: كنا عند النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا» ثم قرأ: «﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]»(٣٦).

---

(٣٣) أخرجه البخاري: (٣٣٧٤، ٤٦٨٩)، ومسلم: (٢٣٧٨).

(٣٤) من أساليب البلاغة، وهو: تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهًا على أنه الأولى بالقصد، أو تلقي السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيهًا على أنه الأولى بحاله أو المهم له. وينظر: شروح التلخيص: ٤٧٩/١، والتبيان في البيان، للطيبي: ٣٥٧/٢، ومعجم المصطلحات البلاغية، لأحمد مطلوب: ١٩٩/١.

(٣٥) ينظر: فتح الباري، لابن حجر: ٤١٤/٦.

(٣٦) أخرجه البخاري: (٥٢٩، ٥٤٧، ٤٥٧٠)، ومسلم: (٦٣٣).

والنبي ﷺ بقراءته الآية يؤكد ما يوصيهم به، ويقرره في نفوسهم، فيكون ذلك أكثر ترغيبًا وحثًّا على الصلاة.

ومن ذلك قول الرسول ﷺ لشباب الصحابة: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَن اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ».

وقوله ﷺ: «فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ» مقتبس من قول الله ﷻ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠]، وقد رتب النبي ﷺ المعاني ترتيب الآية، فقدم غض البصر على إحصان الفرج؛ من باب تقديم السبب على المسبب كما ذكره بعض البلاغيين في أسباب التقديم[٣٧]، لكون الغض من أهم أسباب الإحصان ووسائله، قال أبو حيان (٧٤٥هـ) في تفسير الآية: ((قدم غض البصر على حفظ الفرج؛ لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور، والبلوى فيه أشد وأكثر، لا يكاد يقدر على الاحتزاز منه، وهو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، ويكثر السقوط من جهته))[٣٨].

وهذه الوصية تناسب حال الشباب كما قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((خص الشباب بالخطاب لأن الغالب وجود قوة الداعي فيهم إلى النكاح بخلاف الشيوخ))[٣٩].

٤- الفتوى:

يأتي الصحابة إلى رسول الله ﷺ يستفتونه فيما يقع لهم من أحوال، وربما ضمّن النبي ﷺ خطابه قرآنًا، وقد يكون الجواب كله قرآنا، ومن ذلك قول النبي ﷺ لعمر لما جاءه في شأن ابنه عبدالله حينما طلق امرأته وهي حائض: «لِيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ يُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ فَتَطْهُرَ، فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ كَمَا أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ» وفي رواية قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ فِي قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ﴾[٤٠].

(٣٧) ينظر: التبيان في البيان، للطيبي: ٢٠٥/١.

(٣٨) البحر المحيط، لأبي حيان: ٥٤٧/٦.

(٣٩) فتح الباري، لابن حجر: ١٠٨/٩، وينظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٧٣/٩.

(٤٠) قال النووي في شرح صحيح مسلم: ٦٩/١٠: ((هذه قراءة ابن عباس وابن عمر، وهي شاذة، لا تثبت قرآنًا بالإجماع، ولا يكون لها حكم خبر الواحد عندنا وعند محققي الأصوليين، والله أعلم)).

ومن ذلك حديث الرجل الذي أصاب المرأة، فجاء ليقضي النبي ﷺ فيه ما شاء، فتلا عليه النبي ﷺ قول الله ﷻ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود:١١٤].

ومنه حديث سؤال عائشة ﵂ النبيَ ﷺ عمن يفعل الخير وهو كافر، فهل ذاك نافعه؟ قال: «لاَ يَنْفَعُهُ؛ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ».

٥- القصة:

وردت قصة واحدة تكاد تكون كلها اقتباسًا من القرآن الكريم، وهي قصة موسى والخضر عليهما السلام، كما رواها ابن عباس ﵄ قال: حدثنا أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ: «قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ. فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ؛ فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ. فَانْطَلَقَ، وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَحَمَلا حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا، فَانْسَلَّ الْحُوتُ مِنْ الْمِكْتَلِ، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا. فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا؛ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنْ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ. فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ. قَالَ مُوسَى: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا. فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ إِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ -أو قال: تَسَجَّى بِثَوْبِهِ- فَسَلَّمَ مُوسَى. فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلامُ. فَقَالَ: أَنَا مُوسَى. فَقَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ. قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا. قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؛ يَا مُوسَى، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لا أَعْلَمُهُ. قَالَ: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا. فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعُرِفَ الْخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ. فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا. قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. قَالَ: لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ. فَكَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا. فَانْطَلَقَا فَإِذَا غُلامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلاهُ فَاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ، فَقَالَ مُوسَى: أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ

نَفْسٍ. قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ، قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا. قَالَ: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ». قال النبي ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا»(٤١).

ثانيًا: الخصائص الأسلوبية:

١- حسن الابتداء(٤٢):

مما عُني به البلاغيون ابتداء الخطاب، وعدوه من المواضع التي ينبغي على المتكلم أن يتأنق فيها غاية التأنق؛ لأنه أول ما يطرق السمع ويصل إلى القلب، فإن كان الابتداء حسنًا أقبل السامع على الكلام فوعاه، وإلا أعرض عنه وجفاه(٤٣).

وإذا كان الابتداء متضمنًا المقصود من الخطاب فإن هذا براعة استهلال، وهو مظهر من مظاهر تماسك الخطاب وانسجامه(٤٤).

وجاءت الابتداءات النبوية في غاية من الحسن والبيان، ومن ذلك مثلاً رسالته ﷺ إلى هرقل، في مقام الدعوة إلى الإسلام، وكان مما ابتدأها تحية السلام: «سَلامٌ عَلَى مَن اتَّبَعَ الْهُدَى...» ، وهو موافق لقول الله ﷻ عن موسى عليه السلام: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧].

أما في المقامات التربوية فيأتي الابتداء بالقرآن سابقًا خطاب الأمر أو النهي؛ لتهيئة النفوس لتقبله، والاستجابة له، كما في الخطبة التي حث فيها على التصدق للقوم الفقراء من مضر، وكذا في خطبته يوم العيد التي حث فيها النساء على الصدقة.

٢- حسن الختام:

---

(٤١) أخرجه البخاري: (١٢٢، ٣٤٠١، ٤٧٢٥، ٤٧٢٧)، ومسلم: (٢٣٨٠).

(٤٢) بحثه البلاغيون بأسماء عديدة، منها: حسن الابتداءات، وحسن المطلع أو المطالع، وحسن الافتتاح، ومبادئ الكلام، والإبداع في الاستهلال، وبراعة المطلع، وبراعة الاستهلال. ينظر: العمدة، لابن رشيق: ٢١٧/١، والمثل السائر، لابن الأثير: ١١٩/٣، وشروح التلخيص: ٥٣١/٤، والتبيان، للطيبي: ٤٨٣/٢، ومعجم المصطلحات البلاغية، لأحمد مطلوب: ٣٠/١ و٢٦٣ و٣٨٨ و٤٠٠، و٤٤١/٢.

(٤٣) ينظر: العمدة، لابن رشيق: ٢١٨/١، والمثل السائر، لابن الأثير: ١٢٠/٣، وشروح التلخيص: ٥٣١/٤.

(٤٤) فرّع بعض البلاغيين (براعة الاستهلال) من (حسن الابتداء) إذا كان مضمنًا فيه المقصود من الخطاب. ينظر: شروح التلخيص: ٥٣٣/٤، والتبيان، للطيبي: ٤٨٣/٢، ومعجم المصطلحات البلاغية: ٣٨٩/١.

عُني البلاغيون أيضًا بختام الخطاب، وعدوه كذلك من المواضع التي ينبغي على المتكلم أن يتأنق فيها غاية التأنق؛ ((لأنه آخر ما يقرع السمع، ويرتسم في النفس، وربما حفظ لقرب العهد به، فإن كان مختارًا حسنًا تلقاه السمع واستلذه، حتى جبر ما وقع فيما سبق من التقصير، كالطعام اللذيذ الذي يتناول بعد الأطعمة التفهة، وإن كان بخلاف ذلك كان على العكس، حتى ربما أنسى المحاسن الموردة فيما سبق))(٤٥).

وأما البيان النبوي فإن الخواتيم تأتي فيه على أبلغ ما يقوله البشر، مما يقتضيه المقام ويناسب السياق، ومن ذلك أن يختم ﷺ بالقرآن، وهو كثير في الأحاديث، ويأتي خصوصًا في المقامات التي تتطلب تقريرًا للخبر وتأكيدًا له، كما في حديث علي ﷺ قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ، فقعد وقعدنا حوله، ومعه مِخْصرَة، فنَكَّس، فجعل يَنكُت بمخصرته، ثم قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إلا وَقَدْ كَتَب اللهُ مَكَانَهَا مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً». فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟... فقال: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ: أَمَّا أَهْل السَّعادةِ فيُيَسَّرونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعادةِ، وأَمَّا أَهْل الشَّقاوةِ فيُيَسَّرونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقاوةِ» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠](٤٦).

وكذا قوله ﷺ في حديث ابن مسعود ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى مَالِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيرِ حَقِّهِ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ» ثم قرأ مصداقه من كتاب الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية [آل عمران:٧٧](٤٧).

٣-التكرار:

التكرار في البيان النبوي ظاهرة ذكرها بعض الصحابة ﷺ، كما روى أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثًا(٤٨)، وعن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا دعا دعا ثلاثًا(٤٩).

(٤٥) أنوار الربيع، لابن معصوم: ٣٢٤/٦، وينظر: العمدة، لابن رشيق: ٢٣٩/١، وشروح التلخيص: ٥٤٣/٤، والتبيان، للطيبي: ٤٩٠/٢.

(٤٦) أخرجه البخاري: (١٣٦٢، ٤٩٤٥)، ومسلم: (٢٦٤٧) وهذا لفظه.

(٤٧) أخرجه البخاري: (٢٣٥٧، ٢٤١٦، ٢٥١٥)، ومسلم: (١٣٨) وهذا لفظه.

وكثيرًا ما يأتي التكرار لتأكيد المعنى وتقريره وزيادة التنبيه عليه ترغيبًا أو ترهيبًا أو لغير ذلك(٥٠)، ومما جاء حديث أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ثَلاثَة لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». قال أبو ذر: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرار.

وقد كان لهذا التكرار مزيد تأكيد على عظم الجرم والترهيب منه، مما جعل أبو ذر ﷺ يقول: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ»(٥١).

ومن التكرار: تكرار قراءة بعض السور في خطبة الجمعة أو في بعض الصلوات، كقراءة سورة "ق" في الخطبة، كما روت أم هشام بنت حارثة بن النعمان ﷺ قالت: لقد كان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحدًا سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس(٥٢). قال النووي (٦٧٦هـ): ((قال العلماء: سبب اختيار "ق" أنها مشتملة على البعث والموت والمواعظ الشديدة والزواجر الأكيدة))(٥٣).

٤- الاستفهام:

الأصل في الاستفهام أن يكون لطلب العلم بشيء غير معلوم، إلا أنه كثيرًا ما يخرج عن هذا الأصل إلى معان أخرى، تفهم من خلال السياق وقرائن الأحوال، كالتقرير والتعجب والإنكار والاستبطاء وغيرها(٥٤)،

وقد كثر الاستفهام في البيان النبوي، وأكثره جاء على غير الأصل، ويعلل ذلك أحد الباحثين في البلاغة النبوية في موطأ مالك بأن ((الاستفهام أكثر أساليب الكلام تعبيرًا عن المعاني، في المواقف والمواطن التي يراد بها التأثير في الناس، وتهييج مشاعرهم، وإلهاب أحاسيسهم، وصولاً إلى استمالتهم إلى صف

---

(٤٨) أخرجه البخاري: (٩٤ و٩٥ و٦٢٤٤).

(٤٩) أخرجه مسلم: (١٧٩٤).

(٥٠) ينظر: شروح التلخيص: ٢١٨/٣.

(٥١) أخرجه مسلم: (١٠٦).

(٥٢) أخرجه مسلم: (٨٧٣).

(٥٣) شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٦١/٦.

(٥٤) ينظر: شروح التلخيص: ٢٤٦/٢، ٢٩٠.

الإيمان، وحملاً لهم على التزام أحكام الله، وردعًا لهم عن الوقوع في محارمه، ولذلك كان رسول الله ﷺ يستعمل الاستفهام ليمكن في نفوسهم المعاني التي يريدها))[٥٥].

ومما وقع من الخطاب بالقرآن في صيغة استفهام قوله ﷺ لأبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه حينما لم يستجب لنداء النبي ﷺ له، وكان أبو سعيد يصلي: «أَلَمْ يَقُلْ اللهُ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾؟!». وورد مثل هذا الموقف مع أُبيّ بن كعب رضي الله عنه كما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج على أُبيّ بن كعب وهو يصلي، فقال: «يَا أُبَيّ» فلم يجبه، فخفف أُبي صلاته، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «وَعَلَيْكَ السَّلامُ، مَا مَنَعَكَ يَا أُبَيُّ أَنْ تُجِيبَنِي إِذْ دَعَوْتُكَ؟» فقال: يا رسول الله، إني كنت في الصلاة. قال: «أَفَلَمْ تَجِدْ فِيمَا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ أَنْ: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾» قال: بلى، ولا أعود إن شاء الله... الحديث[٥٦].

وعدول النبي ﷺ في العتاب والإنكار إلى أسلوب الاستفهام -وهو كثير في عتابه ﷺ لأصحابه- لعله لما ذكره بعض العلماء أن النبي ﷺ يعاتب وينكر بأسلوب الاستفهام للتخفيف من حدة الإنكار على أصحابه رضي الله عنهم[٥٧]، والله أعلم.

كما أن في العدول إلى أسلوب الاستفهام في مقام العتاب والإنكار استثارة للنفس وتنبيهًا لها لعلها أن تتأمل في سوء صنيعها وترجع، وقد أشار عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) إلى أن المقصود في الاستفهام إنما هو محض التنبيه، فقال بعد أن تحدث عن بعض الشواهد في معنى الإنكار: ((اعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار، فإن الذي هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه، فيخجل ويرتدع، ويعيى بالجواب))[٥٨].

وفيه أيضًا تذكير للمخاطب بما هو معلوم لديه، ولذا جاءت صيغة الاستفهام بـ"أَلَم" وهي تأتي كثيرًا في الأمر المعلوم الذي لا يخفى على المخاطب، أو مما لا ينبغي أن يخفى عليه. وأُبَي رضي الله عنه من كُتّاب الوحي

---

(٥٥) أساليب الطلب في الحديث النبوي: ٧٣.

(٥٦) أخرجه أحمد: ١٥/٢٠٠، والترمذي: برقم (٢٨٧٥) وقال: حسن صحيح، والحاكم: ١/٧٤٥، وصححه. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي: برقم (٢٨٧٥).

(٥٧) فتح الباري، لابن حجر: ٢/١٩٧.

(٥٨) دلائل الإعجاز، للجرجاني: ١١٨.

وأقرأ أمة مُحَمَّد لكتاب الله ﷻ، ولعل ذلك يفسر مجيء الاستفهام مع أبي بهذه الصيغة: «أَفَلَمْ تَجِدْ فِيمَا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ...؟».

٥-الإيجاز:

من الأساليب التي جاء عليها الخطاب بالقرآن: الإيجاز، خاصة فيما كان إشارة إلى النص القرآني، ومن ذلك مثلاً قوله ﷺ لأزواجه منكرًا عليهن اعتراضهن على إمامة أبي بكر: «مَهْ. إِنَّكُنَّ لانْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ. مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ».

فقوله ﷺ: «لانْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ» قول موجز وتشبيه بليغ يشير إلى موقف امرأة العزيز مع النسوة فيما ذكره الله في قصة يوسف ؑ.

ولعل حال المرض الذي يعانيه النبي ﷺ اقتضت هذا الإيجاز، مع علم المخاطب بالمشبه به وموضعه من القرآن ودلالات التشبيه به.

ومن الإيجاز قول رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَطَهَّرُ، فَيُتِمُّ الطُّهُورَ الَّذِى كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ، فَيُصَلِّي هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَاتٍ لِمَا بَيْنَهَا».

فقوله ﷺ: «الَّذِى كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ» إيجاز، يشير به إلى ما ذكره الله في سورة المائدة (آية: ٦)، ولعل علم المخاطب بما كتب الله عليه من الطهور في القرآن اقتضى هذا الإيجاز، مع كون الخطاب مبنيًا على الإيجاز والتركيز على الترغيب في إتمام الطهور المكتوب والصلوات المفروضة، والله أعلم.

٦- التعريض:

التعريض في الكلام خلاف التصريح، يقال: عرضت لفلان، أو بفلان؛ إذا قلت قولاً وأنت تعنيه، من غير أن توجه له المقصود من قولك صراحة. فالتعريض يكون في استعمال الكلام في حال تُفْهِم المقصود من غير أن يكون اللفظ مستعملاً في ذلك المقصود. أي: إن سياق الكلام وأحوال المتكلم والمخاطب تدل على مقصود المتكلم بكلامه من غير أن يكون اللفظ دالاً دلالة صريحة على المقصود؛ ولذا عرف التعريض بأنه: المعنى الحاصل عند اللفظ لا به. أو هو: المعنى المدلول عليه بالقرينة دون اللفظ[٥٩].

وقد يكون للتعريض من الأثر في النفوس ما لا يبلغه التصريح؛ لأنه يعين صاحبه على إخفاء ما يريد من عتاب أو نقد أو سؤال أو شكاية أو غير ذلك، حتى لا يفهم مراده إلا من يقصده بالتعريض، ولذا فإن

(٥٩) ينظر: الطراز، للعلوي: ١٨٠، ومعجم المصطلحات البلاغية، لمطلوب: ٢٧٦/٢.

التعريض وسيلة مهمة يحسن بالمرء أن يستخدمها في دعوة الناس وإرشادهم، وأمرهم ونهيهم، وتربية الأبناء ونصحهم.

ومن التعريض النبوي بالخطاب القرآني حديث علي بن أبي طالب ﷺ أن رسول الله ﷺ طَرَقه وفاطمة بنت النبي ﷺ ليلةً، فقال: «أَلا تُصَلِّيَانِ؟» قال علي ﷺ: فقلت: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف حين قلنا ذلك، ولم يرجع إليَّ شيئًا، ثم سمعته وهو مُوَلٍّ يضرب فخذه، وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف:٥٤][٦٠]. وجاء في رواية أخرى عند أحمد والنسائي أن النبي ﷺ أيقظهما، ثم رجع إلى بيته فصلى، فلما لم يسمع لهما حسًّا رجع إليهما فأيقظهما، وقال: «قُومَا فَصَلِّيَا». قال عليّ: فجلست وأنا أعرك عيني وأقول: إنا والله ما نصلي إلا ما كُتب لنا، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. قال: فولّى رسول الله ﷺ وهو يقول ويضرب بيده على فخذه: «مَا نُصَلِّي إلا مَا كُتِبَ لَنَا، مَا نُصَلِّي إلا مَا كُتِبَ لَنَا، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾»[٦١].

والاستفهام النبوي «أَلا تُصَلِّيَانِ؟» للتحضيض والحث إلى الصلاة، لكن عليًّا ﷺ لم يستجب إلى حث رسول الله ﷺ وواجه هذا الحث بالجدل، فما كان من النبي ﷺ إلا أن جعل يضرب فخذه كناية عن التأسف والتعجب من جواب علي ﷺ، وعدم الموافقة له على هذا الاعتذار، وكرر النبي قول علي، ثم قرأ الآية، تعريضًا لعلي ﷺ بما ينبغي عليه من الاستجابة والمبادرة إلى ما يحثه عليه رسول الله ﷺ من الخير، وترك الجدل فيه، خاصة وأن الآية نزلت في الكفار الذين يجادلون في آيات الله، مما يوحي للمخاطب بوجه من المشابهة معهم، وفي هذا ترهيب من الفعل وأعظم زاجر عن معاودته[٦٢]، والله أعلم.

ومن التعريض قول النبي ﷺ: «أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ» جوابًا للصحابة الذين سألوه: من أكرم الناس؟ وسبق الإشارة إليه قريبًا في الحديث عن الحوار.

٧- التمهيد للخطاب القرآني أو التعقيب عليه:

قد يمهد النبي ﷺ للخطاب بالقرآن بما يناسب مقتضى الحال، كما في قصة عمر بن الخطاب ﷺ يوم الحديبية، حيث دعاه النبي ﷺ لما نزلت عليه سورة الفتح ليقرأها عليه، لكن النبي ﷺ مهّد قبل ذلك بقوله:

---

(٦٠) أخرجه البخاري: (١١٢٧ و٧٣٤٧) ، ومسلم: (٧٧٥).

(٦١) أخرجه أحمد: ١١٣/٢ (٧٠٥) ، والنسائي: ٢٠٦/٣ (١٦١١)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي: (١٦١١).

(٦٢) ينظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٦٥/٦، وعمدة القاري، للعيني: ١٤٦/٢٥.

«لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ، لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ» ثم قرأ السورة، والقصة رواها زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر كان يسير مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ليلاً، فسأله عمر عن شيء ثلاث مرات، فلم يجبه رسول الله ﷺ، فقال عمر بن الخطاب: ثكلتك أمك يا عمر، نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات، كلّ ذلك لا يجيبك. قال عمر: فحركت بعيري، ثم تقدمت أمام المسلمين، وخشيت أن ينزل فيّ قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخًا يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيّ قرآن، وجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه، فقال: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ، لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ» ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾(٦٣).

ولعل النبي ﷺ أدرك ما كان يخشاه عمر رضي الله عنه من أن ينزل فيه قرآن لاعتراضه على رسول الله ﷺ، وعدم إجابة الرسول لسؤله، فمهد له بما يطمئن قلبه ويؤنسه.

وقد يعقب النبي ﷺ على الخطاب القرآني بما يؤكد الغرض من إيراده، كما في قصة زيد بن أرقم رضي الله عنه، قال: كنت في غزاة، فسمعت عبدالله بن أُبَيّ يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل. فذكرت ذلك لعمي أو لعمر، فذكره للنبي ﷺ، فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبدالله بن أُبَيّ وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه؛ فأصابني همّ لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومَقَتك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، فبعث إليّ النبي ﷺ، فقرأ، فقال: «إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدُ»(٦٤).

ومن التعقيب ما ورد في قصة موسى والخضر عليهما السلام، ففي نهاية القصة قال النبي ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا».

إن القصة تحوي عدة مضامين تربوية، إلا أن معنى "الصبر" ظاهرٌ أنه من أهم مقاصد القصة، ولذا جاء التعقيب مركزًا عليه: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ».

(٦٣) أخرجه البخاري: (٤١٧٧).

(٦٤) أخرجه البخاري: (٤٩٠٠-٤٩٠٤).

المبحث الثالث: أغراض الخطاب بالقرآن

وهذا هو غاية البيان النبوي من تخير آيات القرآن الكريم والخطاب بها، فالنبي ﷺ لم يكن يتخيرها ويضمنها خطابه لمجرد توشيحه بالقرآن وتحسينه بالاقتباس منه، وإنما لما لها من التأثير العميق في نفوس الصحابة ﷺ، وما تحققه من أغراض ووظائف تربوية لتعميق الإيمان وتهذيب السلوك وتوجيه المخاطبين نحو الطريق المستقيم، والله ﷻ قد قال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، وقال: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٦].

وتتنوع الأغراض حسب المقامات التي وردت فيها، وربما كان المقام الواحد يحتمل أكثر من غرض، لكني أشير إلى الأبرز منها، ومن هذه الأغراض:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ الآية [النساء:١]، وقوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر:١٨]

١- الترغيب.

ومما جاء في هذا الغرض الخطبة التي خطبها النبي ﷺ حينما رأى الفاقة في قوم من مضر، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]، والآية التي في الحشر: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [الحشر:١٨]»، ثم حثّ على التصدق، فقال: «تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ» حَتَّى قَالَ: «وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ».

إن المقام الذي خطب فيه النبي ﷺ مقام ترغيب للصحابة ﷺ على التصدق على هؤلاء الفقراء الحفاة العراة الذين ظهر من حالهم ما جعل وجه رسول الله ﷺ يتمعَّر، فرقّ لهم، وعجّل بالصلاة؛ ليجتمع الناس فيحثهم على الصدقة، ويبادر إلى سدّ حاجتهم، وقدّم بين يدي الحث على التصدق آيتين ترغبان الصحابة ﷺ، وتحفزهم إلى ما يريده النبي ﷺ منهم، ومناسبتهما للمقام ظاهرة؛ أما الآية الأولى من سورة النساء

ففيها تذكير بحق الأخوة والتعاون على البر والتقوى، قال النووي (٦٧٦هـ): ((سبب قراءة هذه الآية أنها أبلغ في الحث على الصدقة عليهم، ولما فيها من تأكد الحق لكونهم إخوة))[٦٥]، وهذا مما يناسبه النداء بوصف الناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

وأما آية الحشر ففيها التذكير بالآخرة ترغيبًا إلى العمل الصالح والمبادرة إليه: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾، وهذا مما يناسبه النداء بوصف المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وفي كلا الآيتين تكرر الأمر بالتقوى أربع مرات؛ تقوية لجانب الخوف من الله ﷻ ومراقبته، وهذا مما يدفع إلى المبادرة إلى العمل الصالح ومنه التصدق في هذا المقام.

ولقد كان لهذا الابتداء بالخطاب القرآني أثره في صحابة رسول الله ﷺ ما جعلهم يبادرون إلى التصدق مع ما بكثير منهم من الحاجة، قال جرير ﷺ: فجاء رجل من الأنصار بصُرّة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل، كأنه مذهبة[٦٦]، وحق لرسول الله ﷺ وهو الرحيم بأمته أن يتهلل ويُسرّ ((فرحًا بمبادرة المسلمين إلى طاعة الله تعالى، وبذل أموالهم لله، وامتثال أمر رسول الله ﷺ، ولدفع حاجة هؤلاء المحتاجين، وشفقة المسلمين بعضهم على بعض، وتعاونهم على البر والتقوى)) [٦٧].

ومن الترغيب حديث ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ خرج في عيد فطر فصلى، ثم خطب، ثم أتى النساء ومعه بلال ﷺ فوعظهن وذكّرهن، وأمرهن بالصدقة، وكان قبل أن يأمرهن تلا عليهن قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الممتحنة: ١٢]، فلما فرغ من قراءتها قال لهن: «أَنْتُنَّ عَلَى ذَلِكَ؟» قالت امرأة: نعم، يا رسول الله. قال: «فَتَصَدَّقْنَ».

(٦٥) شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٠٢/٧.

(٦٦) أخرجه مسلم: (١٠١٧).

(٦٧) شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٠٢/٧.

إن النبي ﷺ أراد أن يحث النساء على الصدقة، لكنه مهد للاستجابة له بالتذكير بآية مبايعة النساء، وخاصة قول الله فيها: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾، فكان الأمر بالتصدق مبنيًا على تقرير ما في الآية من طاعته ﷺ، قال ابن حجر (٨٥٢هـ) في التناسب بين الأمر بالتصدق والآية: ((ومناسبته للآية من قوله: ﴿وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ فإن ذلك من جملة المعروف الذي أُمرن به))(٦٨).

وظاهرٌ مناسبة تخير هذه الآية لحال المخاطب، وإلا فثمة آيات أخر فيها الأمر بطاعة الرسول ﷺ والنهي عن معصيته، لكن لما كانت هذه الآية تخاطب النساء خاصة والنبي ﷺ في مقام مخطابتهن اقتضى هذا المقام الخطاب بها.

وكان لهذا الخطاب أثره في نساء الصحابة ﵅؛ فبادرن إلى الاستجابة لحث رسول الله ﷺ وتصدقن بما معهن من حُلي، قال ابن عباس: فبسط بلال ثوبه، فجعلن يلقين الفَتَخ والخواتم فيه.

والنبي ﷺ يكثر من حثّ النساء على الصدقة، مع أنهن لا يملكن كما يملك الرجال، ولعل ذلك لكثرة ما يقع منهن من الخطايا كما في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ»(٦٩)، فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ...»(٧٠)، والصدقة من أعظم ما يكفر الله ﷻ به الذنوب كما في قول الله ﷻ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١]، وفي الحديث: «الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ»(٧١). وربما كثر حثهن عليه مع ما سبق ((لغلبة البخل عليهن، وقلة معرفتهن بثواب الصدقة وما يترتب عليها من الحسن والفضل في الدنيا قبل يوم الآخرة))(٧٢)، وقد يكون لانشغال المرأة ببيتها وزوجها وأولادها، بحيث لا تفرغ للأعمال الصالحة من صلاة وصيام وغيرهما مما يتطلب وقتًا أو جهدًا

---

(٦٨) فتح الباري، لابن حجر: ٤٦٨/٢.

(٦٩) أخرجه البخاري: (٣٠٤ و١٤٦٢) ، ومسلم: (٨٠).

(٧٠) ينظر: فتح الباري، لابن حجر: ١٩٣/١ و٤٦٨/٢، وعمدة القاري، للعيني: ١٢٢/٢-١٢٣.

(٧١) أخرجه أحمد: ٣٢١/٣ و٣٩٩، و٢٣١/٥، والترمذي: (٦١٤، ٢٦١٦)، وابن ماجه: (٣٩٧٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي: ١٨٩/١ (٥٠١).

(٧٢) عمدة القاري، للعيني: ٢٧٢/٣.

بدنيًا، فتكون الصدقة مع عظم أجرها أسهل على المرأة من تلك الأعمال، ولعل الأسباب كلها متحققة في النساء عمومًا، فتكون جميعها مقصودة في الخطاب، والله أعلم(٧٣).

٢- الترهيب:

ومما ورد على هذا الغرض حديث ابن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ حَلَفَ عَلَى مَالِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقِّهِ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ» ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ إلى آخر الآية [آل عمران:٧٧].

إن الحلف على مال امرئ مسلم بغير حق فيه كذب وظلم وهضم لحقوق المسلمين وإثارة للعداوة بينهم ونشر للفساد في مجتمعهم، ولذا لم يكتف النبي ﷺ بمجرد النهي عن هذا الفعل، بل كان المقام يقتضي التخويف منه والترهيب: «لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»، ثم ترقّى النبي ﷺ في الترهيب بقراءة الآية، التي تتضمن شيئًا من لوازم غضب الله ﷻ على من فعل ذلك المنكر، مما يزيد الأمر ترهيبًا وتخويفًا.

وقد جاءت هذه الآية مقتبسة في خطاب نبوي آخر في مقام الترهيب، كما في حديث أبي هريرة ﷺ: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، وفي حديث عن أبي ذر أن النبي ﷺ كرر هذا القول ثلاث مرار. وقد كان هذا الترهيب عظيمًا مما جعل أبو ذر ﷺ يقول: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟

إن الأفعال التي توعد النبي ﷺ عليها بهذا الوعيد الشديد أفعال شنيعة، لا يقتصر أثرها على من عملها، بل يتعدى إلى غيره وإلى المجتمع المسلم، فيشيع الكبر والأثرة والفساد والشقاق.

والاقتباس في الحديثين ليس مقتصرًا على تلك الآية بل هي وآية أخرى، هي قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٤].

والاقتباس لا يصلنا فقط بهاتين الآيتين وما فيهما من الترهيب الصادر من العظيم ﷻ، بل يصلنا بسياقهما الذي يكشف عن مدى توافق الخطاب النبوي مع الخطاب القرآني، وإيراد السياقين يكشف عن ذلك: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ

(٧٣) ينظر: رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين: ٩٥-٩٨.

فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٤-١٧٧]. ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ٧٥-٧٧].

إن المعاني التي تضمنها البيان النبوي نجدها حاضرة في هاتين الآيتين:

فالذي يمنع فضل ماله ومائه عن ابن السبيل والمستحقين له، أو يمنّ في عطائه، يناسبه قوله ﷻ: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾.

والذي يُنَفِّق سلعته بالحلف الكاذب يناسبه قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾.

والذي لا يفي لإمامه إلا على حظ الدنيا يناسبه ﷻ: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾.

وهكذا يضع الاقتباسُ المخاطَب أمام هذه الآيات فتزيده ترهيبًا وتخويفًا.

٣- العتاب والإنكار:

ومما جاء في هذا الغرض حديث أبي سعيد بن المعلى ﷺ حينما كان يصلي فلم يستجب لنداء النبي ﷺ له، فقال له رسول الله ﷺ: «أَلَمْ يَقُلْ اللهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾؟!»، وكذلك قوله ﷺ لأبيّ بن كعب ﷺ في مثل هذا الموقف: «أَفَلَمْ تَجِدْ فِيمَا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ أَنْ: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾» قال: بلى، ولا أعود إن شاء الله.

ولقد كان لهذا العتاب القرآني أثره في نفوس أصحابه ﷺ وترتبيتهم على الاستجابة لأمر الله ورسوله، وما كان من أُبي ﷺ إلا أن قال: لا أعود إن شاء الله.

ومما جاء في مقام الإنكار حديث مَعقِل بن يَسار ﷺ حيث كانت أخته تحت رجل، فطلقها ثم خَلَّى عنها، حتى انقضت عدتها، ثم خطبها، فحَمِي معقل من ذلك أَنَفًا، فقال: خَلَّى عنها وهو يقدر عليها، ثم يخطبها، فحال بينه وبينها، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ ﴾ إلى آخر الآية [البقرة:٢٣٢]، فدعاه رسول الله ﷺ فقرأ عليه.

وكان كافيًا لمعقل ﷺ أن يخاطبه رسول الله ﷺ بالقرآن فحسب ليرجع إلى أمر الله ﷻ ويدع أخته لزوجها، وقد قالت الرواية عنه: فترك الحمية، واستقاد لأمر الله.

ومن ذلك قوله ﷺ لأزواجه لما راجعنه في إمامة أبي بكر للناس أثناء مرضه الذي توفي فيه: «مَهْ. إِنَّكُنَّ لأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ. مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ».

وهذا مقام إنكار وزجر، ولذا استعمل النبي ﷺ اسم الفعل "مه" الذي يأتي في مثل هذا المقام، بمعنى: اكفف أو اسكت ونحوهما(٧٤)، كما استعمل النبي ﷺ أسلوب التشبيه البليغ، الذي يحذف منه الأداة ووجه الشبه، وهو من آكد أنواع التشبيه، وأكثرها مبالغة في الوصف، إذ هو قائم على تناسي التشبيه، وعلى ادعاء اتحاد المشبه بالمشبه به، وكأن المشبه هو عين المشبه به في جميع صفاته لا في الوصف الذي صيغ

---

(٧٤) ينظر: لسان العرب، لابن منظور: ٥٤٢/١٣.

التشبيه له. والتشبيه هنا يتلاءم مع جنس المخاطب، فالمشبه به نسوة، والمخاطب كذلك، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((والمراد أنهن مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن، ثم إن هذا الخطاب وإن كان بلفظ الجمع فالمراد به واحد، وهي عائشة فقط[٧٥]، كما أن (صواحب) صيغة جمع والمراد زليخا فقط، ووجه المشابهة بينهما في ذلك أن زليخا استدعت النسوة، وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة، ومرادها زيادة على ذلك، وهو أن ينظرن إلى حسن يوسف ويعذرنها في محبته، وأن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن أبيها كونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك، وهو أن لا يتشاءم الناس به))[٧٦]، والله أعلم.

٤- التأكيد والتقرير:

ومما جاء على هذا الغرض حديث علي ﷺ حينما سئل الرسول ﷺ: أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ: أَمَّا أَهْل السَّعادةِ فيُيَسَّرونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعادةِ، وأَمَّا أَهْل الشَّقاوةِ فيُيَسَّرونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقاوةِ» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠].

ومن ذلك حديث جرير بن عبد الله ﷺ قال: كنا عند النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ؛ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا» ثم قرأ: «﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]».

ففي هذين الحديثين يحتج النبي ﷺ بالقرآن ويستشهد به تأكيدًا لما قاله، وذلك أقوى في تقرير المعنى في نفس المخاطب؛ من أجل اليقين بالخبر، والاستجابه للأمر والنهي، والله أعلم.

٥- تأنيس المخاطب وتطييب قلبه.

وفي ذلك حديث زيد بن أرقم ﷺ حينما أصابه همّ، أجلسه بيته بسبب تكذيبه على خبره عن المنافقين، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾، فبعث إليه النبي ﷺ، فقرأ عليه الآيات، ثم قال: «إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدُ».

---

(٧٥) وفي قول النبي ﷺ لحفصة يراد به حفصة أو هي وعائشة.

(٧٦) فتح الباري، لابن حجر: ١٥٣/٢.

ويظهر أن قراءة النبي ﷺ القرآن على زيد خاصة لتأنيسه وتطييب قلبه بعد أن أصابه الهم الذي ألزمه بيته بسبب تكذيبه، وأي أُنْس سيكون له بعد أن صدقه الله ﷻ !

ومثله قصة عمر بن الخطاب ﵁ يوم الحديبية كما رواها سَهْل بن حُنَيْف ﵁ أن عمر جاء إلى النبي ﷺ بعد الصلح، فقال: يا رسول الله، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: «بَلَى». فقال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بَلَى». قال: فعلام نعطي الدَّنية في ديننا؟! أنرجع ولـمّا يحكم الله بيننا وبينهم؟! فقال: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا». فانطلق عمر إلى أبي بكر، فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ، فقال: إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدًا. فنزلت سورة الفتح، فقرأها رسول الله ﷺ على عمر إلى آخرها، فقال عمر: يا رسول الله، أَوَفَتح هو؟! قال: «نَعَمْ»(٧٧).

فدعوة النبي ﷺ لعمر، وقراءة السورة عليه خاصة كان لتطييب قلبه وزيادة يقينه بكلام الله ﷻ، بعد أن وقع في نفسه شيء من الصلح.

وكان لذلك تأثير في نفس عمر ﵁، كما قال سهل ﵁ في رواية عنه: فطابت نفسه ورجع.

(٧٧) أخرجه البخاري: (٣١٨٢)، ومسلم: (١٧٨٥).

الخاتمة

تناول البحث نوعًا من أنواع البيان النبوي في خطاب الصحابة ﷺ، وهو الخطاب بالقرآن الكريم، وجاء في مقدمة وثلاثة مباحث، تناول في المبحث الأول: أنواع الخطاب النبوي بالقرآن، وفي المبحث الثاني: بنية الخطاب النبوي بالقرآن، وفي المبحث الثالث: أغراض الخطاب النبوي بالقرآن.

وكان من نتائج هذا البحث ما يأتي:

١- يعد خطاب النبي ﷺ بالقرآن الكريم ظاهر في البيان النبوي سواء مع أصحابه أم مع غيرهم.

٢- تنوع الخطاب النبوي بالقرآن الكريم إلى ثلاثة أنواع: الأول: الخطاب بنص القرآن سواء كان الخطاب كله قائمًا على النص القرآني، أم كان النص جزءًا من الخطاب. والثاني: الاقتباس من القرآن. الثالث: الإشارة إلى القرآن.

٣- تنوعت أجناس القول التي جاء الخطاب بالقرآن في إطارها، ومن هذه الأجناس: الخطبة، والوصية، والحوار، والفتوى، والقصة.

٤- ظهر في البنية التركيبية للخطاب عدة صور وأساليب بلاغية، منها: حسن الابتداء، وحسن الختام، والتكرار، والاستفهام، والإيجاز، والتعريض. وربما مهّد النبي ﷺ للخطاب، وربما عقّب عليه، بحسب ما يقتضيه المقام.

٥- يحقق الخطاب بالقرآن الكريم أغراضًا ووظائف تربوية في تعميق الإيمان وتهذيب السلوك وتوجيه المخاطبين نحو الطريق المستقيم، وتتنوع تلك الأغراض حسب المقامات التي وردت فيها، ومن الأغراض: الترغيب، والترهيب، والعتاب والإنكار، وتأنيس المخاطب والتلطف معه، والتأكيد والتقرير.

وأرى أن هذا الموضوع لا يزال مفتوحًا لتناوله وتعميق البحث فيه والكشف عن المزيد من أغراضه وأساليبه.

أسأل الله ﷻ أن ينفع به كاتبه وقارئه، والحمد لله رب العالمين.

ثبت المراجع

١- آثار ابن باديس، جمع الدكتور عمار الطالبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٢- أساس الاقتباس، لاختيار الدين الحسيني، مطبعة مهران، استانبول، ١٢٩٨هـ.

٣- أساليب الطلب في الحديث النبوي: دراسة لغوية بيانية في الموطأ، مُحَمَّد سعيد عبدالله، دار الثقافة، ٢٠٠٠م.

٤- الاقتباس من القرآن الكريم، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق: د.إبتسام الصفار، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٣٩٥هـ.

٥- الاقتباس: أنواعه وأحكامه، للدكتور عبد المحسن العسكر، دار المنهاج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٦- أنوار الربيع في أنواع البديع، لابن معصوم المدني، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان بالنجف، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ.

٧- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي- دار الفكر- بيروت- الطبعة الثانية/١٤٠٣هـ.

٨- بيان إعجاز القرآن، للخطابي، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: مُحَمَّد خلف الله ومُحَمَّد سلام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة.

٩- البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ.

١٠- التبيان في البيان، لشرف الدين الطيبي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التجارية، مكة المكرمة.

١١- التجربة الدعوية للشيخ عبدالحميد بن باديس، مركز البحوث والدراسات في مجلة البيان، الرياض، ١٤٣٥هـ.

١٢- حسن التوسل إلى صناعة الترسل، لشهاب الدين الحلبي، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠م.

١٣- دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.

١٤- رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين، ليوسف العليوي، نشر جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.

١٥- سنن ابن ماجة، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت.

١٦- سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، لأبي عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ.

١٧- سنن النسائي، بشرح السيوطي، وحاشية السندي، عناية: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٤٠٦هـ.

١٨- شرح صحيح مسلم، للنووي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

١٩- شروح التلخيص، يحوي: الإيضاح للقزويني، وعروس الأفراح للسبكي، ومختصر التفتازاني، ومواهب الفتاح للمغربي، وحاشية الدسوقي على مختصر التفتازاني، دار السرور، بيروت.

٢٠- صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، ترقيم: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

٢١- صحيح سنن الترمذي، للألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٢٢- صحيح سنن النسائي، للألباني، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٢٣- صحيح مسلم، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، تركيا، الطبعة الأولى، ١٣٧٤هـ.

٢٤- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة العلوي، مراجعة وضبط: مُحَمَّد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٢٥- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ.

٢٦- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٧- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني، تحقيق: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ.

٢٨- فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: ابن باز، وترقيم عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت.

٢٩- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت.

٣٠- المثل السائر، لضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٣١- المجموع شرح المهذب، للنووي، تحقيق: مُحَمَّد نجيب المطيعي.

٣٢- المستدرك على الصحيحين، للحافظ أبي عبد الله الحاكم، دار المعرفة، بيروت.

٣٣- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، إشراف: د.عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦-١٤٢١هـ.

٣٤- معجم المصطلحات البلاغية، للدكتور أحمد مطلوب، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٣هـ.

٣٥- المغني، لموفق الدين ابن قدامة المقدسي، تحقيق: عبد الله التركي وعبد الفتاح الحلو، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ.

٣٦- النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين ابن الأثير، تحقيق: محمود الطناحي والزواوي، أنصار السنة المحمدية، باكستان.